٢٤ـ بِغْدَاد

في سنة ١٤ (٦٣٥) كان المثنى بن حارثة على حرب العراق، إذ احتل العرب الحيرة وأخذوا يغيرون على السواد. فقال اهل الحيرة للمثنى: ان بالقرب منهم قرية تقوم فيها سوق عظيمة مرة في كل شهر فيأتيها تجار فارس والأهواز وسائر البلاد يقال لها بغداد. «فأخذ المثنى على البر حتى أتى الانبار فتحصن أهلها، فاستدعى المثنى مرزبانها وامنه فجاء، فأخبره انه ينوي الاغارة على سوق بغداد وطلب إليه ان يبعث معه أدلاء وأن يعقد له الجسر، ليعبر الفرات عليه. فعقد المرزبان الجسر فعبر المثنى مع أصحابه وبعث معه الأدلاء. فسار حتى وافى السوق ضحوة، فهرب الناس وتركوا أموالهم فأخذ العرب من الذهب والفضة وسائر الأمتعة ما قدروا على حمله، ثم رجعوا الى الانبار»[١].

هذه هي المناسبة الوحيدة التي وردت فيها أخبار هذا المكان. وظلت بعد ذلك كمية مهملة حتى اعتزم المنصور في اتخاذ عاصمة جديدة له.

اختفى اسم بغداد وسوقها من التاريخ حتى سنة ١٤٥ (٧٦٢)، لما رغب أبو جعفر في اتخاذ عاصمة جديدة له. «ذلك ان أهل الكوفة كانوا يفسدون جنده، وكان الراوندية قد ثاروا به، فأرسل المنصور رواداً ليفتشوا له عن موضع يبني فيه مدينة على أن يكون الموقع واسطاً رافقاً بالعامة والجند. وخرج المنصور بعدهم بنفسه فجرب أماكن مختلفة ثم تخير موقع بغداد. فقد روى أهل السير انه أتى موضع بغداد وعبر موضع قصر السلام ثم صلّى العصر، وذلك في صيف وحر شديد. وبات أغيب مبيت وأقام يومه فلم ير إلا خيراً، فقال (هذا موضع صالح للبناء: فإن الميرة تجيئه من أرمينية وأذربيجان والموصل والشام والسند والصين والبصرة، والمادة تأتيه من الفرات ودجلة ولا يحمل الجند والرعية إلا مثله) فخط البناء وقدر المدينة ووضع أول لبنة بيده»[٢].

روى ابن عياش في بناء بغداد: «بعث المنصور روّاداً وهو بالهاشمية يرتادون له موضعاً يبني فيه مدينة ويكون الموضع واسطاً رافقاً بالعامة والجند، فنعت له موضع قريب من بارما، وذكر له غذاؤه وطيب هوائه، فخرج إليه بنفسه حتى نظر إليه وبات فيه، فرأى موضعاً طيباً فقال لجماعة، منهم سليمان بن مجالد وأبو أيوب المرزباني وعبد الملك بن حميد الكاتب: ما رأيكم في هذا الموضع؟ قالوا: طيب موافق، فقال: صدقتم ولكن لا مرفق فيه للرعية، وقد مررت في طريقي بموضع تجلب إليه الميرة

والامتعة في البر والبحر وانا راجع إليه وبائت فيه، فإن اجتمع لي ما أريد من طيب الليل فهو موافق لما أريده لي وللناس، قال: فأتى موضع بغداد وعبر موضع قصر السلام ثم صلى العصر، وذلك في صيف وحرّ شديد، وكان في ذلك الموضع بيعة فبات أطيب مبيت وأقام يومه فلم ير إلا خيراً فقال: هذا موضع صالح للبناء، فإن المادة تأتيه من الفرات ودجلة وجماعة الانهار، ولا يحمل الجند والرعية إلا مثله، فخط البناء وقدر المدينة ووضع أول لبنة بيده فقال: بسم الله والحمد لله والأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين، ثم قال: ابنوا على بركة الله»[٣].

ويروون ان المنصور استشار في اختيار المكان، فقال أحد الدهاقين: «الذي أراه يا أمير المؤمنين ان تنزل في بغداد ... وأنت يا أمير المؤمنين على الصّراط ودجلة، تجيئك بالميرة من القرب وفي الفرات من الشام والجزيرة ومصر وتلك البلدان، وتحمل إليك طرائف الهند والسند والصين والبصرة وواسط في دجلة، وتجيئك ميرة أرمينية وأذربيجان وما يتصل بها في تامرا، وتجيئك ميرة الموصل وديار بكر وربيعة وأنت بين أنهار لا يصل إليك عدوك إلا على جسر او قنطرة، فإذا قطعت الجسر والقنطرة لم يصل إليك عدوك، وأنت قريب من البر والبحر والجبل، فأعجب المنصور هذا القول وشرع في البناء»[٤].

قالوا، ولما استقر رأي المنصور على ان يبني مدينته حيث هي «ووجه المنصور في حشر الصنّاع والفعلة من الشام والموصل والجبل والكوفة وواسط فأحضروا، وأمر باختيار قوم من أهل الفضل والعدالة والفقه والامانة والمعرفة بالهندسة، فجمعهم وتقدم اليهم ان يشرفوا على البناء»[٥]. ثم دعا المهندسين وأمرهم بخط الرماد «ثم وضع أساس المدينة مدوراً وجعل قصره في وسطها وجعل لها أربعة ابواب وأحكم سورها وفصيلها، فكان القاصد اليها من الشرق يدخل من باب خراسان والقاصد من الحجاز يدخل من باب الكوفة والقاصد من المغرب يدخل من باب الشام والقاصد من فارس والأهواز وواسط والبصرة واليمامة والبحرين يدخل من باب البصرة»[٦].

وروى ياقوت نقلاً عن الخطيب ان المنصور: «بنى مدينته مدوّرة وجعل داره وجامعها في وسطها، وبنى القبة الخضراء فوق ايوان، وكان علوّها ثمانين ذراعاً، وعلى رأس القبة صنم على صورة فارس في يده رمح، وكان السلطان اذا رأى ان ذلك الصنم قد استقبل بعض الجهات ومدّ الرمح نحوها علم ان بعض الخوارج يظهر من تلك الجهة، فلا يطول عليه الوقت حتى ترد عليه الأخبار بأن خارجياً قد هجم من تلك الناحية، قلت انا: هكذا ذكر الخطيب وهو من المستحيل والكذب الفاحش وانما يحكى مثل هذا عن سحرة مصر وطلسمات بلیناس التي أوهم الاغمار صحتها تطاول الازمان والتخيل ان المتقدمين ما كانوا بني آدم، فأما الملة الاسلامية فانها تجلّ عن مثل هذه الخرافات»[٧].

وقد ذكر ابو سهل بن نوبخت قال: «امرني المنصور لما اراد بناء بغداد بأخذ الطالع، ففعلت فاذا الطالع في الشمس وهي في القوس، فخبّرته بما تدل النجوم عليه من طول بقائها وكثرة عمارتها وفقر الناس الى ما فيها ثم قلت: واخبرك خلّة أخرى اسرك بها يا امير المؤمنين، قال: وما هي؟ قلت: نجد في ادلة النجوم انه لا يموت بها خليفة ابداً حتف انفه، قال: فتبسم، وقال الحمد لله على ذلك، هذا من فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم، ولذلك يقول عمارة بن عقيل بن بلال بن جرير بن الخطفي:

اعاينت في طول من الأرض أو عرض ... كبغداد من دار بها مسكن الخفض
صفا العيش في بغداد واخضرّ عوده، ... وعيش سواها غير خفض ولا غضّ
تطول بها الاعمار، ان غذاءها ... مريءٌ، وبعض الأرض أمْرأ من بعض
قضى ربها ان لا يموت خليفة ... بها، انه ما شاء في خلقه يقضي
تنام بها عين الغريب، ولا ترى ... غريباً بأرض الشام يطمع في الغمض
فإن جزيت بغداد منهم بقرضها، ... فما اسلفت الا الجميل من القرض
وان رميت بالهجر منهم وبالقلى، ... فما اصبحت اهلا لهجر ولا بغض»[٨].

وقد نقل الخطيب البغدادي مؤرخ بغداد وصفاً لبغداد يوم جاءها وفد الروم ايام المتوكل يدلك على ما كانت عليه من عظمة وفخامة وما كان عليه بلاطها من ثراء وبهاء.

وعرفت بغداد ايام الرشيد والمأمون عصرًا ازدهر فيه الفكر والعلم، وكوفىء فيها الشعراء وأهل العلم على جهودهم، بحيث يتمنى أهل القلم لو ان تلك الايام تعود!

وقد نقل ابن أبي أصيبعة عن يحيى بن عدي رواية فيها الكثير من الطرافة، وقد لا تكون بعيدة عن الحقيقة والسبب، وان بعدت عن الواقع في روايتها. والرواية هي:

قال المأمون: رأيت فيما يرى النائم: كأن رجلاً على كرسي جالساً في المجلس الذي أجلس فيه فتعاظمته وتهايبته وسألت عنه، فقيل لي: هو أرسطوطاليس. فقلت: أسأله عن شيء، فسألته. فقلت: ما الحسن؟ فقال: ما استحسنته العقول، فقلت: ثم ماذا؟ قال: ما استحسنته الشريعة، قلت: ثم ماذا؟ قال: ما استحسنه الجمهور. قلت: ثم ماذا؟ قال: ثم لا ثم. فكان هذا المنام من أوكد الأسباب في إخراج الكتب. فإن المأمون، كان بينه وبين ملك الروم مراسلات. وقد استظهر عليه المأمون. فكتب الى ملك الروم يسأله الإذن في انقاذ ما يختار من العلوم القديمة المخزونة في بلد الروم. فأجاب الى ذلك بعد امتناع. فأخرج المأمون لذلك جماعة، منهم الحجّاج بن مطر، وابن البطْريق وسَلْم صاحب بيت الحكمة وغيرهم فأخذوا مما وجدوا ما اختاروا. فلما حملوه إلَيه أمرهم بنقله فنقل، وقد قيل: ان يوحنا بن ماسَويه ممن نفذ الى بلد الروم.

وأحضر المأمون أيضاً حنين بن اسحاق وكان فتى السن وأمره بنقل ما يقدر عليه من كتب الحكماء اليونانيين الى العربي وإصلاح ما ينقله غيره فامتثل أمره.

«ومما يحكى عنه ان المأمون كان يعطيه من الذهب زنة ما ينقله من الكتب الى العربي مِثلاً بمثل. وقال أبو سليمان المنطقي: ان بني شاكر، وهم محمد، وأحمد، والحسن، كانوا يرزقون جماعة من النقلة. منهم حنين بن اسحاق، وحبيش بن الحسن، وثابت بن قُرّة وغيرهم، في الشهر نحو خمسمائة دينار للنقل والملازمة»[٩].

في أوائل القرن الرابع (العاشر) وفد على الخليفة المقتدر بالله رسول لصاحب الروم. وقد نقل لنا الخطيب البغدادي، مؤرخ بغداد، وصف الاستقبال الذي أقيم له، قال:

«ولقد ورد رسول لصاحب الروم في أيام المقتدر بالله، ففرشت الدار بالفروش الجميلة، وزينت بالآلات الجميلة، ورتب الحجاب وخلفاؤهم والحواشي على طبقاتهم. على أبوابها ودهاليزها وممراتها ومختـرقاتها وصحونها ومجالسها، ووقف الجند صفين بالثياب الحسنة، وتحتهم الدواب بمراكب الذهب والفضة، وبين أيديهم الجنائب على مثل هذه الصورة. وقد أظهروا العدد المكسيّة والأسلحة المختلفة، فكانوا من أعلى باب الشماسية والى قريب من دار الخلافة، وبعدهم الغلمان الحجرية والخدم الخواص الدارية والبرّانية الى حضرة الخليفة، بالبزة الرايعة والسيوف والمناطق المحلاة. وأسواق الجانب الشرقي وشوارعه وسطوحه ومسالكه مملوءة بالعامة النظارة، وقد اكترى كل دكان وغرفة مشرفة بدراهم كثيرة، وفي دجلة الشذاآت والطيارات والزبازب والدلالات والسُميريات بأفضل زينة وأحسن ترتيب وتعبية، وسار الرسول ومن معه من المراكب الى أن وصلوا الى الدار، ودخل الرسول فمر به على دار نصر القشوري الحاجب. ورأى صفقاً كثيراً ومنظراً عظيماً، فظن انه الخليفة وتداخلته له هيبة وروعة، حتى قيل له إنه الحاجب. وحمل من بعد ذلك الى الدار التي كانت برسم الوزير، وفيها مجلس أبي الحسن علي بن محمد الفرات يومئذ، فرأى أكثر مما رآه لنصر الحاجب ولم يشك في انه الخليفة، حتى قيل له هذا الوزير، وأجلس بين دجلة والبساتين في مجلس قد علقت ستوره واختيرت فروشه، ونصبت فيه الدسوت، وأحاط به الخدم بالأعمدة والسيوف. ثم استدعي ـ بعد ان طيف به في الدار ـ إلى حضرة المقتدر بالله، وقد جلس وأولاده من جانبيه، فشاهد من الأمر ما هاله. ثم انصرف الى دار قد أعدّت له»[١٠].

وكان شعور الناس بعظم بغداد وأهميتها كبيراً، حتى إنه قيل «بغداد جنة الأرض ومدينة السلام وقبة الاسلام ومجمع الرافدين وغرّة البلاد وعين العراق ودار الخلافة ومجمع المحاسن والطيبات ومعدن الظرائف واللطائف، وبها أرباب الغايات في كل فن، وآحاد الدهر في كل نوع، وكان أبو اسحق الزجاج يقول: بغداد حاضرة الدنيا وما

عداها بادية. وكان أبو الفرج الببغا يقول: هي مدينة السلام بل مدينة الاسلام، فإن الدولة النبوية والخلافة الاسلامية بها عششتا وفرّختا وضربتا بعروقهما وبسقتا بفروعهما، وان هواءها أغذى من كل هواء وماءها أعذب من كل ماء، وان نسيمها أرقّ من كل نسيم، وهي من الاقليم الاعتدالي بمنزلة المركز من الدائرة، ولم تزل بغداد موطن الاكاسرة في سالف الأزمان ومنزل الخلفاء في دولة الاسلام»[١١].

ولعمار بن عقيل ابيات في بغداد:

ما مثل بغداد في الدنيا ولا الدين ... على تقلّبها في كل ما مين
ما بين قطربلّ فالكرخ نرجسه ... تندى، ومنبت خيريّ ونسرين
تحيا النفوس بريّاها، اذا نفحت، ... وخرّشت بين اوراق الرياحين
سقياً لتلك القصور الشاهقات وما ... تخفي من البقر الانسية العين
تستنّ دجلة فيما بينها، فترى ... دهم السفين تعالى كالبراذين
مناظر ذات ابواب مفتّحة، ... انيقة بزخاريف وتزيين
فيها القصور تهوى، بأجنحة، ... بالزائرين الى القوم المزورين
من كل حرّاقة تعلو فقارتها، ... قصر من الساج عالٍ ذو اساطين[١٢]

ومن ألطف ما قيل في التشوق الى بغداد ابيات لمحمد النيرماني يقول فيها:

فدى لك يا بغداد كل مدينة ... من الأرض، حتى خطّتي وديارياً
فقد طفتُ في شرق البلاد وغربها، ... وسيّرت خيلي بينها وركابيا
فلم ار فيها مثل بغداد منزلاً، ... ولم ار فيها مثل دجلة واديا
ولا مثل اهليها ارقّ شمائلاً، ... واعذب الفاظاً، واحلى معانيا
وقائلة: لو كان ودّك صادقاً ... لبغداد لم ترحل، فقلت جوابيا:
يقيم الرجال الموسرون بأرضهم، ... وترمي النوى بالمقترين المراميا[١٣]

في اواخر القرن السادس (الثاني عشر) زار ابن جبير الرحالة الكبير بغداد. وقد ترك لنا الكثير عنها. فمن ذلك وصفه للمارستان اذ يقول: «فيها المارستان الشهير ببغداد وهو على دجلة وتتفقّده الاطباء كل يوم اثنين وخميس ويطالعون احوال المرضى به ويرتّبون لهم أخذ ما يحتاجون إليه وبين ايديهم قوَمة يتناولون طبخ الادوية والاغذية، وهو قصر كبير فيه المقاصير والبيوت وجميع مرافق المساكن الملوكية والماء يدخل اليه من دجلة»[١٤].

وقال ابن جبير عن الجهة الشرقية من بغداد: «والشرقية حفيلة الاسواق عظيمة الترتيب تشتمل من الخلق على بشر لا يحصيهم الا الله تعالى الذي احصى كل شيء عدداً. وبها من الجوامع ثلاثة كل يجمع فيها جامع الخليفة متّصل بداره، وهو جامع

كبير وفيه سقايات عظيمة ومرافق كثيرة كاملة، مرافق الوضوء والظهور، وجامع السلطان وهو خارج البلد ويتصل به قصور تنسب للسلطان أيضاً معروف بشاه شاه، وكان مدبّر امر اجداد هذا الخليفة، وكان يسكن هنالك فابتنى الجامع امام مسكنه، وجامع الرّصافة وهو على الجانب الشرقي المذكور وبينه وبين جامع هذا السلطان المذكور مسافة نحو الميل. وبالرصافة تربة الخلفاء العباسيين رحمهم الله فجميع جوامع البلد ببغداد المجمّع فيها احد عشر، واما حماماتها فلا تحصى عدة ... والمدارس بها نحو الثلاثين وهي كلها بالشرقية وما منها مدرسة الا وهي يقصر القصر البديع عنها، واعظمها واشهرها النظامية، وهي التي ابتناها نظام الملك وجدّدت سنة اربع وخمسمائة. ولهذه المدارس اوقاف عظيمة وعقارات محبسة تتصيّر الى الفقهاء المدرّسين بها ويجرون بها على الطلبة وما يقوم بهم. ولهذه البلاد في أمر هذه المدارس والمارستانات شرف عظيم وفخر مخلّد فرحم الله واضعها الاول ورحم من تبع ذلك السنن الصالح»[١٥].

وأُعجب الرحالة المغربي، وهو العالم الفقيه الأديب، بالمدرسة النظامية فقال يصف درساً حضره فيها:

«فأول من شاهدنا مجلسه منهم الشيخ الإمام رضي الدين القزويني رئيس الشافعية وفقيه المدرسة النظامية والمشار اليه بالتقديم في العلوم الاصولية. حضرنا مجلسه بالمدرسة المذكورة اثر صلاة العصر من يوم الجمعة الخامس لصفر، فصعد المنبر واخذ القراء أمامه في القراءة على كراسي موضوعة، فتوقوا وشوقوا واتوا بتلاحين معجبة ونغمات محرجة مطربة، ثم اندفع الشيخ الإمام المذكور، فخطب خطبة سكون ووقار، وتصرف في أفانين من العلوم، من تفسير كتاب الله عز وجل، وايراد حديث رسول الله ﷺ، والتكلم على معانيه. ثم رشقته شآبيب المسائل من كل جانب فأجاب وما قصر، وتقدم وما تأخر. ودفعت اليه عدة رقاع فيها فجمعها جملة في يده، وجعل يجاوب على كل واحدة منها وينبذ بها الى ان فرغ منها، وحان المساء فنزل وافترق الجميع. فكان مجلسه مجلس علم ووعظ وقوراً هيناً ليناً ظهرت فيه البركة والسكينة»[١٦].

في سنة (٦٥٦ ـ ١٢٥٨) احتل هولاكو بغداد ودمرها تقريباً. ومع ذلك فقد ظل لها الكثير من النشاط. وهذا ابن بطوطة الذي زارها بعد ذلك بما يقرب من القرن يحدثنا عن المدرسة المستنصرية على انها قائمة. يقول ابن بطوطة:

«وهذه الجهة الشرقية من بغداد حافلة الاسواق عظيمة الترتيب، واعظم اسواقها سوق يعرف بسوق الثلاثاء، كل صناعة فيه على حدة. وفي وسط هذا السوق المدرسة النظامية العجيبة التي صارت الامثال تضرب بحسنها. وفي آخره المدرسة المستنصرية، ونسبتها الى امير المؤمنين المستنصر بالله ابي جعفر ابن امير

المؤمنين الظاهر ابن أمير المؤمنين الناصر. وبها المذاهب الاربعة، لكل مذهب ايوان فيه المسجد وموضع التدريس، وجلوس المدرس في قبة خشب صغيرة على كرسي عليه البسط ويقعد المدرس وعليه السكينة والوقار، لابساً ثياب السواد معتماً، وعلى يمينه ويساره معيدان يعيدان كل ما يمليه، وهكذا ترتيب كل مجلس من هذه المجالس الأربعة. وفي داخل هذه المدرسة الحمام للطلبة، ودار الوضوء»[١٧].

الهوامش

(١) لمحات في تاريخ العرب، ١٦١، ص ١٩٧.
(٢) نفس المكان، ص ١٩٧ـ١٩٨.
(٣) ياقوت الحموي، ج ١ ص ٤٥٧ـ٤٥٨.
(٤) نفس المكان، ج ١، ص ٤٥٨.
(٥) نفس المكان، ج ١، ص ٤٥٨.
(٦) نفس المكان، ج ١، ص ٤٥٩.
(٧) نفس المكان، ج ١، ص ٤٥٩.
(٨) نفس المكان، ج ١، ص ٤٦٠ـ٤٦١.
(٩) رفاعي، أحمد فريد: عصر المأمون جزء ١، القاهرة، دار الكتب، ١٩٢٧، ص ٣٧٧.
(١٠) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، القاهرة، مكتبة خانجي، ١٩٣١، ج ١، ص ١٠٠ـ١٠١.
(١١) ياقوت الحموي، ج ١، ص ٤٦١.
(١٢) نفس المكان، ج ١، ص ٤٦٢.
(١٣) نفس المكان، ج ١، ص ٤٦٤.
(١٤) ابن جبير، ص ٢٢٥ـ٢٢٦.
(١٥) نفس المكان، ص ٢٢٨ـ٢٢٩.
(١٦) نفس المكان، ص ٢١٩.
(١٧) ابن بطوطة، ج ١، ص ١٧٥.

من الاعمال الكاملة للدكتور نقولا زيادة , اصدار الدار الاهلية للنشر والتوزيع في بيروت , الجزء الثالث عشر - مدن عربية